الحياة AL HAYAT
الجمعة ٢٧ حزيران (يونيو) ٢٠٠٣ الموافق ٢٧ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ/ العدد ١٤٧٠٤
AL HAYAT FRIDAY 27 JUNE 2003 ISSUE NO 14704

الرباط عاصمة ثقافية... ماذا يعني في الواقع العربي؟ ليست قديمة كبيروت والقاهرة ولا حديثة كالشارقة

عبدالإله بلقزيز *

■ جدير بالرباط ان تحمل اسم العاصمة الثقافية العربية لهذا العام، وان تؤدي الدور الذي ترتبه عليها هذه الصفة، وهي له اهل في ما ندّعي ونعتقد. لعلها بمحض الصدفة تسمّت عاصمة ثقافية حينما حملتها الصدفة تلك، ودواعي التداول على حمل الاسم اياه – بين حواضر العرب المعاصرة – على ان تكون درة تاج عواصم الثقافة العربية هذا العام. لكن اهليتها لأن تكون كذلك، اعني على مثال ما نسب اليها – بفعل التداول اياه – من صفة وتعيين (= عاصمة)، ما كانت وقفاً على اعتراف اداري بها من لون من اطلقوا عليها التسمية، على مقتضى مبدأ «التناوب» في التكني بكنية العاصمة، وانما كان مأتى اهليتها دور نهضت به طويلاً – في السابقات من العقود والسنوات – بكثير من التواضع والحشمة وبقليل من التنطع والادعاء.

الرباط، مثل سواها من الحواضر العربية او من «عواصم» الثقافة، ليست مكاناً مطلقاً مفصولاً عن محيطه، ولا هي جغرافيا محدودة بتخوم اسمها (ترابياً وادارياً)، بل هي اكبر من اسمها الحصري الذي تضيق به – شأن اي مدينة من المدن الكبرى – وتفيض عنه الى «خارجها». هي – بالأحرى – عنوان لمكان اعرض وأوسع قد تنوب عنه في التعيين، من دون ان تلغي – وهي الفرع المتحدر منه – ارومته والأهل. انها – بعبارة اخرى – كناية عن محيطها (الجغرافي والسياسي والثقافي) القريب، اي المغرب، وعن محيطها القومي الاعرض، اي الوطن العربي.

اذا كان وصفها بالمدينة النائبة عن – او الممثلة لمحيطها الثقافي العربي من باب البلاغة (= الكفاية) التي ليست تخلو – على ما فيها من جمالية – ولو من نزر يسير من الحجية والصدقية، بالنظر الى ان فصولاً من مشاهد عنفوان هذه الثقافة العربية جرت على مسرحها في الثلث الاخير من القرن الاخير... فإن تعيينها بالمدينة الناطقة ثقافياً باسم محيطها الوطني القريب (المغرب) ليس فعلاً في باب البلاغة وعلومها (البيان والبديع والمعاني مجتمعة)، بل في باب النحو واللغة حيث نعت الرباط عاصمة يطول – بدلالته – منعوتاً اشمل منها هو محيطها الذي باسمه تتعين كمدينة، ثم كعاصمة سياسية قبل ان يؤول تعيينها عاصمة ثقافية عربية الى فعل يقع في باب النوافل والافاضات بلغة العقائد والصلوات. انها عاصمة للثقافة في المغرب بلا شك. لكن ذلك ليس يعني – بحال – انها وفرت لصفتها تلك، كعاصمة، ما تحتاجه الصفة – وتفترضه – من البنى والمؤسسات التي توفر للثقافة – ابتداء – شروطها التحتية الحيوية (شروط الامكان بلغة لوي ألتوسير)، بل لأن النازحين اليها من المثقفين والمبدعين من كل حدب وصوب مغربي – وهم عشرات اضعاف بنيها من المثقفين والأدباء والفنانين – اسبغوا عليها الصفة تلك بعصاميتهم وكدهم وجهدهم الذي ما صرفت له الرباط قليل انتباه وان تحملت عائداته بما يكرس اسمها ويحمله الى الآفاق! فالمدينة اياها، وان اضحت مدينة الذين فاؤوا اليها من «الهوامش» (من مدن الشمال الشرقي والجنوب الشرقي والوسط والجنوب الغربي وقراها)، او من المراكز الاصغر من مركز العاصمة «معيارياً» (مراكش، فاس، مكناس، طنجة، تطوان، اغادير، الجديدة، آسفي...)، ليست تملك ما تقدمه لهم سوى فضاءاتها و«امتياز» الاقامة في العاصمة! اما ما دون ذلك، فليس في مكنها ان تقدم لهم بنى استقبال Structures D acceuil تضع في حوزتهم فضاءات حقيقية للانتاج! فهي – بساكنتها التي تزيد على المليون نفر – لا تملك إلا مسرحاً واحداً وقاعات سينما لا تزيد على اصابع اليدين، وخزانة (مكتبة) عامة وحيدة، وقاعة عرض للانتاج التشكيلي وحيدة (باب الرواح)، وثلاث قاعات للعروض والمحاضرات: واحدة منها فقط تابعة لوزارة الثقافة (قاعة أبا حنيني) والأخريان تابعتان لوزارة الشبيبة والرياضة (قاعة علال الفاسي) او لـ«وكالة المغرب العربي للأنباء»! أما مراكز الاعلام والصحافة ودور النشر، فليس فيها منها إلا النزر اليسير الذي لا يليق بأي عاصمة في العالم؛ ومعظم هذه مستقرة في الدار البيضاء: عاصمة التجارة والمال والأعمال.

ذلك جرح (داخلي) يضاف الى الرباط، والى صورتها عن نفسها، بعد جرح «خارجي» (عربي) اشد ايلاماً عندها وأهليها من المثقفين والأدباء والمبدعين، هو جرح التهميش والاقصاء الذي اصابها – وأصاب الثقافة فيها على وجه التحديد – من عرب رموها خلفهم وما احتسبوها في جملة مدائن الثقافة التي يزدان بها مشهد الانتاج الرمزي في بلادهم! لسنوات امتدت – كأنها في وطأة الشعور الثقيل بها قرون – عانت الرباط ومثقفوها، ومثقفو المغرب قاطبة، من الشعور بالغبن والحيف والضيم بسبب احجام المشرق العربي، ومراكزه الثقافية، عن الاعتراف بأن للمغاربة ما يقولونه في مضمار الفكر والثقافة والابداع، وما يضيفونه الى حصيلة الابداع العربي في هذه الميادين. وإذا كان الشعور هذا قديماً نسبياً (منذ حسرة المفكر المغربي والعربي – الاصلاحي والنهضوي – علال الفاسي على ذلك في اربعينات القرن العشرين المنصرم)، فإنه بات اشد مرارة على النفس منذ ثلاثة عقود سلفت، اي منذ قرٍّ في وعي النخب الثقافية المغربية انها خرجت من حيز هامش فرضه التاريخ عليها – بقوة احكامه القاهرة – الى حيث باتت قادرة، او هكذا تعتقد، انها قادرة على ان تنتج رأياً، او مقالة بلغة الشهرستاني، فلا تكتفي بشروح وحواشٍ على متن الفكر العربي – والثقافة العربية – في المشرق، ولا بالترجمة مجملاً ومفصلاً عن المعبر عنه تركيباً وجملة في ذلك المتن. ولم يخفف من وطأة هذا الشعور إلا مسارعة بعض من المثقفين العرب – في المشرق العربي – الى الذهاب باعترافهم (بأصالة الانتاج الثقافي في المغرب وعمقه) الى الحد الذي نعتوا به ما حظي باعترافهم بـ«النهضة»: «النهضة» الفكرية والثقافية في المغرب. وهو عندي نظير اعترافهم بتخلف الانتاج الثقافي و«انحطاطه»: الى الانطباع السريع اقرب منه الى الحكم الحصيف المالك لشرائط التقويم و«الفتيا» الموضوعيين!

من جهتنا، نعرف – عن عظيم يقين وكبير معاينة – ان الرباط ليست بيروت والقاهرة، في ميزان الثقافة (وقد لا تكون كذلك بعد عقود) بسبب مواريث التاريخ وأحكام قانون تفاوت التطور. فوراء المدينتين المركزين ما ليس يقل عن المئة والسبعين عاماً من السبق والانتاج والتراكم لا يعني ربع قرن «رباطي» (= مغربي) امامها شيئاً. لكننا نملك ان نبوح باعتقاد يقول انها (الرباط) تملك ان تنافس – من موقع ندّي – عواصم اخرى عريقة، مثل دمشق وتونس، او جديدة الاثر في المشهد الثقافي العربي، مثل عمّان والشارقة والجزائر، فتقول ما ليست تقوى هذه على قوله. مرة اخرى سيكون «ابطال» هذه «المنافسة» (هم) مثقفو المغرب وأدباؤه ومبدعوه. اما المدينة (= الرباط)، فستظل ومعها «بناهاه التحتية الثقافية» – كومبارساً في المشهد حتى اشعار آخر!

* كاتب مغربي.

الإعلام الذي يحرض على تجارة الموت

عارف علوان *

■ في أوائل أيار (مايو) الماضي، نبهت التفجيرات الانتحارية في الرياض، ثم الدار البيضاء، العرب ان الارهاب الاصولي ارتد عليهم بعد ان حوصر في الخارج. هذه التفجيرات تركت المجتمعات والحكومات والكتّاب في ذهول وحيرة، تذكرنا بما اصاب اميركا إثر انفجارات ١١ ايلول (سبتمبر)، مع الفارق بين الارادتين، اذ تحولت الحيرة عبر الاطلسي في غضون ايام قليلة الى عزم وتخطيط ثم البدء بالتنفيذ، بينما سيتواصل الجدل داخل العقل العربي لفترة، قد تطول الى ان تأتي الضربة المقبلة!

الكل عرف المسؤولين، لكن لا احد يريد التعمق في اسباب فشل العرب في اجتثاث ظاهرة الارهاب.

في نقاش أداره الاذاعي المعروف حسن أبو العلا من القسم العربي في اذاعة لندن (٢٠٠٣/٥/٢٢) تحدثت ست شخصيات عربية مهمة، كتّاباً ورؤساء تحرير ومسؤولين ومتخصصين، عن الارهاب الاصولي وسبل مواجهته، اتفقوا في النهاية على ان دحر هذا الارهاب بوقت سريع امر في غاية الصعوبة، وعزا جهاد الخازن، اول المتحدثين، هذه الصعوبة الى اختلاف الارهاب الاصولي عن الارهاب العلماني: «هنا تواجه شخصاً يأتي ليفجر نفسه ويفجرك لأنه يريد الذهاب الى الجنة».

هذا الكلام صحيح الى حد كبير، يضاف اليه، ان «الحياة» تلقت ١٧ رسالة تهديد من الظواهري عام ١٩٩٧ لأنها كانت ترفض نشر بياناته، مع ذلك التزمت الجريدة موقفها على رغم انفجار احد الطرود في مكتب الاستعلامات، في لندن. (هذا الكلام ايضاً للاستاذ الخازن وبتوسيع مني).

إذاً في ضوء جفاء حاد بين عقليتين، الارهاب والمسؤولية الواعية، ينغلق الحوار دائماً. فإذا كان العرب جادين في رغبتهم للتخلص من النشاط الاصولي، عليهم ان يغلقوا ابواب «الوعد بالجنة» في وجه الاصوليين.

لا أمزح، ولا اسخر من احد، وقد سمعت وشاهدت وقرأت آلاف الاصوات تعبر عن نقمتها وقرفها من التفجيرات التي حدثت في الرياض والدار البيضاء، بيدَ ان تلك الاصوات جاءت كردود افعال يمحو الزمن القصير اثرها الى ان تفرقع المتفجرات من جديد، وهي لا تختلف بحال عن ردود افعال الحكومات العربية، التي ضيعت بعد انفجارات ١١ ايلول فرصة عظيمة لتطويق الارهاب الاصولي وكسر شوكته.

الآن على العرب، وقد انقلب نشاط الاصوليين عليهم، ان يغلقوا ابواب «الوعد بالجنة»، اذ لا سبيل آخر امامهم، والحكومات العربية وحدها تستطيع هذا، لأن ملاحقة بعض الناشطين ومحاكمتهم قد يدمر بعض الخلايا، لكنه لا يحل المشكلة.

كيف يمكن الحل، من غير اضافة المزيد من التعميم الى ارشيف الثقافة العربية الزاخرة بالتعمية والعموميات؟

إن مجرد الحديث عن الثقافة العربية السائدة يثير القرف بالقوة نفسها التي يثيرها الكلام على الارهاب، بيدَ ان العازف الاكبر، الآن، على الناي الذي يستعمله الاصوليون لاغراء المراهقين والشبّان بركوب قطاراتهم السريعة الى الجنة هو الاعلام العربي، متمثلاً في ١٤٠ فضائية، وآلاف الصحف، الكبيرة والصغيرة. ومنذ بدأ هذا الكم الغزير من الاعلام بالتسابق على نشر بيانات الاصوليين وأحاديثهم المباشرة، لم يعد الظواهري في حاجة الى تهديد صحف تلتزم موقفاً اخلاقياً من هوسه بالقتل، لأنه يجد صحفاً قليلة كهذه غارقة بين فيض من الشاشات تعكس بلا مواربة تبشيره الاصولي، سواء في طريقة صوغها للأخبار أم في تحليلها للوضع العام في المنطقة العربية، اي الميدان الذي يشكل المصدر الاول للمراهقين الذين تلوح لهم الجنة التي وعدهم بها قياديون ارهابيون، افضل بكثير من العناء التي يتطلبه العيش في مجتمعات غارقة في البطالة، إضافة الى عدد كبير من الواهمين بأن الامبراطورية الاسلامية العالمية ستقوم قريباً نتيجة تفجيرات يعد لها الظواهري من الكهوف بمعدل تفجير او تفجيرين في كل اربع سنين!

هنا نبدأ بالاشارة الى القوت اليومي الذي يعرضه الاعلام العربي على الذهن المكدود للمواطن، هذا القوت الذي يكتب بسرعة، ويكرر عدداً محدوداً من الافكار، تتقافز بين الاعمدة اليومية ومربعات التحليل، تتولى الفضائيات اعادة قراءتها وشرحها في ندوات مفتوحة يمكن لأي مستوى من المشاهدين المشاركة فيها عبر الهاتف.

وتقوم الأفكار المذكورة، التي يعبر من خلالها الاعلامي عن ذاته، على ان الارهاب الاصولي جاء كرد فعل على المشكلات البطالة وغياب الديموقراطية وموقف اميركا المنحاز لاسرائيل، لكن الاعلاميين لا يلاحظون على الاطلاق ان الفكر الارهابي يحمل الكراهية الشديدة للديموقراطية، ولم يقدم في دعايته ومنهجه السياسي حلولاً اقتصادية واضحة، وفي تجربتين لامعتين استمد منهما الاصوليون العرب الدعم والتدريب (ايران وأفغانستان) عطّل الحكام هناك المدارس والمؤسسات الصناعية البسيطة، او كلفوا رجال الدين الاشراف عليها، الى ان اصبح حمل السلاح المهنة الوحيدة التي يتزاحم عليها ملايين العاطلين من العمل، اما المشكلة الفلسطينية، فلم تحظ لدى الاصوليين بالمرتبة التي خصصوها لفكرة قيام الدولة الاسلامية العالمية، سلاحهم الدعائي الأقوى للعب برؤوس المراهقين!

هذا الربط المداور بين الاصولية والمشكلات المدنية يوحي للمراهقين اثناء سماعهم الاذاعة والفضائيات في بيوتهم، ان الحركات الارهابية تعمل للاصلاح الاجتماعي ولرفع شأن الامة، فيتهيأون نفسياً للانخراط فيها حينما تتصيدهم الجماعات الاسلامية المتطرفة، لتباشر معهم عملية تلقين في اجواء شديدة الكتمان، تمنعهم خلالها من الاختلاط بأقرانهم خوفاً من وصول افكار مغايرة او ساخرة قد تهز عقولهم الخام.

وقد ذكر اهل المراهقة المغربية (١٩ سنة) التي شاركت في تفجيرات الدار البيضاء انها اخبرتهم عن ذهابها للجامعة حينما توجهت الى المنظمين ليزنروها بالمتفجرات، بينما توصلت المعلومات الاستخبارية الى ان محمد عطا عاش فترة طويلة قبل تفجير الطائرات (١١ ايلول) في عزلة، لا يختلط بغير المشاركين في العملية. والاسلوب هذا يطبق حتى اليوم مع مراهقي «حماس» و«حزب الله» و«الجهاد» و«القاعدة»، وفي جميع العمليات الانتحارية لا يعرف ذوو المراهقين عن انخراط ابنائهم في الحركات الاصولية الى ان يذاع اسم المنتحر وصورته فيجهشون بالبكاء غير مصدقين، وفي غمرة المفاجأة وحرارة الصدمة يدلون بأقوال تبارك موته (على رغم شناعته) وهم محاطون بتهليل وتكبير اعضاء يرسلهم التنظيم لهذا الغرض، ثم يمنعونهم من الاتصال بالصحافيين والمراسلين، بعد ان يطمئنونهم الى ان الحركة ستغطي تكاليف الدفن، ويهمسون ايضاً عن مساعدة مالية في وقت لاحق.

وإذ ينشغل اعلام الثقافة العربية في جدلهم المعتاد، القائم على التنظير ولوك العموميات، يهملون كلياً اسلوب الاختطاف العقلي الذي يلجأ اليه الاصوليون مع المراهقين، والارهاب ضد الاهل لتجنب سقطة اللسان التي قد تفضح الجانب اللاقانوني واللاإنساني في عملهم المنظم، لأن الحركات الاصولية تلجأ الى التغرير بالقاصرين وعزلهم وتدريبهم الى ان يبلغوا سن الرشد، وأحياناً قبل ذلك، لترسلهم في العمليات الانتحارية. هؤلاء الصبيان لا يمكن لعقلهم الصغير، المخدر، تقدير جسامة ما ينفذون.

ولأن مقولة الشهادة تقوم على خداع المراهقين والشبّان ممن يعانون حالات نفسية مضطربة، لم أشهد يوماً قائداً أصولياً واحداً، حتى من الدرجة الثالثة، شارك في عملية انتحارية بنفسه ليقدم برهاناً على إيمانه بدعواه، لا في فلسطين، ولا في لبنان ولا في بقية العالم! بل إن هؤلاء القادة محاطون دائماً بالحماية، وعندما يحسّون نُذر المطاردة يلجأون الى العيش في اماكن تصعب معرفتها، يتبعهم حرسهم وكل متطلبات الحياة التي تعودوا عليها.

وشهد العرب فرار بن لادن وبقية قياداته الى المناطق الوعرة حالما دخل جنود الحلفاء افغانستان، فترك وراءه انصاره يواجهون القوة الأميركية ثم يسلمون بعد ان يتساقط عدد قليل منهم! فضيّع ابرز دعاة «الجهاد» هكذا فرصة ثمينة للذهاب الى الجنة، لسبب واحد انهم غير مقتنعين تماماً من وصولهم إليها.

هذا السلوك المخزي ايضاً لم يدفع الكتّاب والصحافيين العرب الى ملاحقة ظاهرة الأصولية عبر خطة مكثفة، طويلة النفس، لتسفيه دعاوى القادة الأصوليين امام الناس، ومحاصرة نشاطهم بالكشف، وبإلحاح يومي عن لا قانونية ولا انسانية العمليات الانتحارية منذ بداياتها الأولى، وأينما كانت المواقع التي تعمل فيها، لأن الإرهابي يبدأ بخصمك، ثم ينقلب عليك، وهذا ما يحصل الآن.

أعرف ان افتقار المجتمعات العربية الى قيم عصرية، تلتزم مفهوماً واحداً للقتل والموت، هو الذي يجعل الأفكار تختلط ببعضها بعضاً، ما يؤدي الى التقاء الأصولي والمثقف في الرأي لدى التطرق لكل المشكلات والمظاهر التي تعانيها المجتمعات العربية، وهذا امر مخيف! حقاً مخيف عندما ينتشر في منطقة بهذا الاتساع! لأنه يحدث لدى النقاش حول الديموقراطية والطغيان، حول التخلف والتحضر، اليمين واليسار، الرجعي والتقدمي، المتسامح والمتعصب، النزيه والمتلاعب!

وأخيراً يندهش المثقفون، من الصحافي الصغير الى المحلل الكبير، حينما يلاحظون خوف الأوروبي او الأميركي من المسلم، او اعتباره كل العرب ارهابيين، من دون ان يلاحظ هؤلاء المثقفون ان من يمثّل العرب الان ويعكس صورتهم في العالم هو الحركات الأصولية وأخبارها، بكل ما يثيره نشاطهم الانتحاري من اشمئزاز واستفزاز لمشاعر الغربيين، تلك المشاعر التي استقرت على مفاهيم وقيم تميّز بين قتل المذنب وقتل البريء، قتل الطفل وقتل الناضج، ولا تسمح أو تبرر لأي قضية، مهما كان سموها، الخلط بين مبادئ الأخلاق والأهداف السياسية. بينما يستطيع الكاتب العربي بمجرد استنكار القتل في كلمتين، الإطناب من ثمّ في شرح وتبرير اسبابه:

العمليات الانتحارية بشعة، إلا ان الدوافع إليها كثيرة! وصدام حسين حفار قبور من الدرجة الأولى، لكنه يدافع عن قضايانا القومية! وياسر عرفات يدير سلطة فاسدة، بيد انه منتخب شرعياً! الى آخر مناقشات التيه والتضليل التي رسخت في العقل الباطن لغالبية الناس ميلاً الى الابتهاج بالمجازر حينما يكون بين الضحايا عدو واحد.

في حال كهذه، ومن دون ايجاد ضوابط اخلاقية، ومعايير واضحة وملزمة للإعلام في صوغه للخبر، وتحريره للمواد المكتوبة، واختياره للموضوع، لن تستطيع الحكومات العربية اجتثاث النشاط الأصولي، وهذا ما عنيته بإغلاق ابواب الوعد بالجنة في وجه المنظمات الإرهابية.

* كاتب عراقي مقيم في بريطانيا.

رداً على معتز الخطيب

رؤى أربع للوقوف على سلوكيات تنظيم «القاعدة»

عمار علي حسن *

■ وضع معتز الخطيب، في مقاله الموسوم بـ«القاعدة قطيعة بين الشريعة والسياسة» المنشور في «الحياة» يوم ١٩ حزيران (يونيو) الجاري، يده على نقطة مهمة تتمثل في السلبيات التي تخلفها سلوكيات تنظيم «القاعدة» على العالم الإسلامي والمسلمين في الغرب على حد سواء، لكنه في تمهيده لهذه النتيجة مر بمقدمات مبتسرة أو قاصرة، اختزلت أسباب تلك السلوكيات في الفهم الخاطئ للدين، خصوصاً في ما يتعلق بمسألة الجهاد.

ومثل هذا التصور ينزع ما يبدر عن «القاعدة» وغيرها من سياقه السياسي والاجتماعي والنفسي الأوسع، وهي مسألة لم يستطع المفكرون الغربيون أنفسهم تجاوزها. فبعد حدث ١١ أيلول (سبتمبر) الفارق تنازعت ثلاث رؤى تقويم الغرب لصعود حركة «الإحياء الإسلامي» في منطقة الشرق الأوسط، خصوصاً في شقها المتعولم والذي يأتي في مقدمة تنظيم «القاعدة» أولاها نظرت إلى هذه الحركة على أنها رد فعل لسياسة واشنطن الداعمة بشدة لإسرائيل، والمصرة بقوة في الوقت ذاته على قضم حقوق العرب إن لم يكن إهانتهم. ويقف نعوم تشومسكي على رأس متبني هذه الرؤية. والثانية تحدثت عن هذه الإحيائية بصفتها تمثل جوهر «صدام حضاري» بين المسلمين والغرب، ويقود صمويل هنتنغتون من يتمسكون بهذا الاتجاه، الذي زادت أسهمه بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن، خصوصاً أن هذا التصور رشح بقوة على خطاب الخصمين اللدودين، وهما الولايات المتحدة وتنظيم «القاعدة» حتى إنهما تطابقا عقب ١١ أيلول مباشرة حينما تحدث بوش عن «حرب صليبية»، وأعاد أسامة بن لادن كلامه المعتاد عن «محاربة الصليبيين». أما الرؤية الثالثة فتتعامل مع الإحياء الإسلامي على أنه رد ثقافي – نفسي يتماس مع دوائر سياسية واجتماعية واقتصادية أوسع على «الحداثة»، التي حمل الغرب لواءها، وهزّ بها رواسب ماضوية في الشرق الأوسط وغيره. ويدافع باول بيرمان عن هذا الفهم لحال الاحتقان بين الجناح العنيف من الإحيائية الإسلامية والغرب، خصوصاً الولايات المتحدة. والرابعة اعتبرت أن هناك خصائص بنائية تجعل القطاع الأكبر من الحركة الإسلامية، لا سيما تلك التي تأخذ بعداً دولياً، تطرح نفسها «بديلاً استراتيجياً» لما هو سائد، سواء على مستوى كل قطر عربي وإسلامي على حدة، أو كقوة عالمية بديلة. فالإسلام «دين عالمي» ونصه الأول المؤسس وهو «القرآن» يجذر تصورات ذات طابع أممي، تتجاوز حدود اللون والجنس واللغة والجغرافيا والزمن، وتجعل معيار التفرقة الوحيد بين البشر هو «التقوى»، وتحض دائماً على «الدعوة» التي تعني التبشير بالدين الإسلامي، و«الجهاد» الذي يعني مقاومة أي عدوان على المسلمين، أياً كان موقعهم ومكانتهم، وحماية ثغور الدول الإسلامية.

وما يحسب لمعتز الخطيب أنه سعى، من دون أن يذكر ذلك صراحة، إلى تفنيد بعض ما يحمله غربيون لتلك الخاصية البنائية من مسؤولية عما تفعله «القاعدة»، حينما تحدث عن «المعرفة الفقهية المنقوصة والمغلقة» لدى أتباع هذا التنظيم ومن يحذو حذوهم. فالخاصية ذاتها متجذرة في عقول بقية المسلمين ونفوسهم، إلا أنهم جميعاً لا يسيرون في الطريق ذاتها التي سارت فيها «القاعدة» والتنظيمات والجماعات المتطرفة التي ترفع من الإسلام شعاراً سياسيا لها. ومن ثم يمكن الجزم بأن تلك الخاصية لا تنتج في حد ذاتها، كما يتصور بعض الباحثين وصناع القرار في الغرب، عنفاً، عشوائياً أو منظماً.

وفضلا عن «الخاصية البنائية» هذه فإن «صدمة الحداثة» و«صدام الحضارات» ليسا كافيين كمدخلين للوقوف على حقيقة ما دفع أسامة بن لادن وأيمن الظواهري وأتباعهما إلى السير على درب مواجهة الولايات المتحدة. فبالنسبة الى الأول على الأقل فإن هذه الثلاثية كانت موجودة حين كان بن لادن حليفاً ظاهراً لواشنطن إبان حركة «الجهاد» ضد الاتحاد السوفياتي (السابق) في أفغانستان. أما الثاني فظل مشغولاً لعقود بمحاربة «العدو القريب»، الذي يعني تحديداً النظام الحاكم في مصر، ولم يكن موقفه من الولايات المتحدة يتعدى حدود الاحتقان النفسي الناجم عن تأييدها السافر لإسرائيل، ووقوفها، في الوقت ذاته، خلف النظام المصري.

وهنا يتبدى مدخل ثالث، لم يعره الخطيب اهتماماً كبيراً، يتمثل في أن سياسات الولايات المتحدة المتحيزة لإسرائيل، الجائرة على العرب، قد غذت حال الغضب داخل كثير من الجماعات الإسلامية، الراديكالي منها والمحافظ، وساهمت، إلى جانب قمع الأنظمة الحاكمة وتسلطها، في توجه بعض فصائل الحركة الإسلامية إلى العنف، وتحولها من «الداخل» إلى «الخارج»، سواء على مستوى الوجود أو تحديد الأهداف، وبمعنى أكثر دقة «تعيين العدو». وبالطبع فإن هذا لا يعني تبرير ما تقدم عليه «القاعدة»، لكنه يحمل ضرورة لفت انتباه الطرف الآخر، وهو الولايات المتحدة، أن عليها أن تعدل كثيراً من سياساتها في الشرق الأوسط، لتغلق الباب أمام أي أسباب تدفع الجماعات الإسلامية المتطرفة إلى استهداف المصالح الأميركية.

* كاتب مصري.

ألف وجه ألف علم

«خطف أوروبا» لرمبراندت: لو كانت المخطوفة متواطئة؟

■ تقول الأسطورة ان أوروبا كانت ابنة تيليفاسا «الذي يلمع من بعيد» أو أرجيوبي «ذو الوجه الأبيض». وكانت ابنة أو شقيقة فينيكس، الأرجواني، أو أيضاً الفينيقي. وهي ذات يوم كانت تقطف الزهور، مع صديقات لها، عند شاطئ البحر قرب صور أو صيدا، حين خرج زيوس فجأة من وسط مياه البحر وقد أخذ شكل ثور، ثم حملها على ظهره خاطفاً اياها غير مبال بصراخها، ونقلها على ذلك النحو الى جزيرة كريت، حيث تزوجها وأنجب منها ثلاثة أبناء هم: مينوس وساربيدون ورادامانت. وهو في أثناء ذلك قدم لها ثلاث هدايا: سهم يصل دائماً الى هدفه، كلب لا يترك مجالاً لأية طريدة تفلت منه، وعملاق صنع من البرونز مهمته حراسة الجزيرة تالوس، التي لا يمكن الوصول اليها إلا من نقطة واحدة.

هذه الأسطورة المعروفة والتي تدرس حتى في المدارس الابتدائية في بعض البلدان، لطالما فتنت الأدباء والشعراء والرسامين. وكان أوفيد واحداً من أوائل الذين فتنوا بها وعبروا عنها في أشعارهم. لكن الملفت دائماً هو أن معظم اللوحات والرسومات التي انتشرت في القديم لتمثل خطف «الثور» زيوس لأوروبا، كانت تصور هذه الأخيرة وهي على ظهر الثور، مستقيمة الظهر بحيث تبدو كسيدة في موكبها أكثر مما تبدو ضحية لواحدة من أشهر عمليات الخطف في التاريخ القديم. ومن الواضح ان الرسامين صوروا أوروبا دائماً كما يجب أن تكون: آلهة مؤسسة، لا ضحية لنزوة سيد كبير.

والحال ان الرسامين الأكثر معاصرة لم يشذوا عن تلك النظرة الى أوروبا. ولم يكونوا قليلي العدد، على أية حال، رسامو الأزمان الحديثة الذين سحروا بحكاية أوروبا وخطف زيوس لها، وصوروها، ومن بين أشهرهم، بالطبع، بيكاسو الذي عبّر عن الحادثة بشكل موارب في لوحته «دورا والمينوتور» (١٩٣٦) التي استكملها بلوحة أخرى له هي «المرأة والسكين» التي عكس فيها الأدوار، كما يقول الباحثان كريستيان دي بارتيلا وآلان روبا في كتابهما «تحولات أوروبا»، فصوّر المرأة وهي تطعن الحيوان بسكينها. وماتيس بدوره صوّر خطف أوروبا في لوحة رسمها العام ١٩٢٩ واشتغل عليها، كما قال هو نفسه، ثلاث سنوات، ليطلع بمشهد يتناقض تماماً مع كل ما رسمه الآخرون: أوروبا جالسة بهدوء عارية على ظهر الثور الذي لا يقل عنها هدوءاً واستكانة. وفي مقابل لوحة ماتيس هذه يأتي الألماني ماكس بيكمان ليصوّر المشهد في العام ١٩٣٣ بشكل فجائعي تبدو فيه أوروبا صارخة مرغمة على الخضوع والثور يزأر واثقاً من نفسه.

● ورسامو العصور السابقة لم يكونوا، على أية حال، أقل اهتماماً بأسطورة أوروبا، إذ ها هو تيتيان يرسم المشهد في واحدة من أجمل لوحاته، وأوروبا على ظهر الثور ملتبسة الموقف فيما ملائكة (على شكل كيوبيد إله الحب) ترافقها في سفرها. ومن المعروف تاريخياً أن لوحة «خطف أوروبا» لتيتيان (١٥٦٢) تعتبر أول لوحة أضفت على المشهد طابعاً درامياً، بل لا يخلو من فجائعية. لكنها ليست اللوحة الأشهر في تلك الأزمان بالطبع. ذلك ان هذه المكانة محفوظة دائماً للرسام الهولندي الكبير رمبراندت.

● فرمبراندت بدوره، فتن بأسطورة أوروبا. وهو لكي يحقق المشهد في لوحة تعتبر اليوم من أشهر أعماله (وكذلك من أهم مقتنيات متحف جيتي في لوس انجيليس بالولايات المتحدة الأميركية) قرأ العديد من النصوص والأشعار عن الحادثة. ولا سيما ما كتبه أوفيد، الذي استقى منه الرسام تفاصيل الحدث بشكل مباشر، وان كان كثر من مؤرخي الفن يرون أيضاً أن الشاعر الفرنسي رونسارد كان مصدراً أساسياً من مصادر اشتغال رمبراندت على لوحته. ذلك ان لوحة الرسام تكاد تكون، في روحيتها العامة، ترجمة لمقطع جاء في الكتاب الثالث لـ«أناشيد» رونسار الصادر في العام ١٥٥٥، حيث يقول المقطع: «كان لأوروبا شعر أشقر ولون بشرتها كان يبدو شبيهاً بالزهور وقد تفتحت/ كانت عيناها خضراوين وكانت بقعتان من لون أحمر داكن تتوجان شفتيها الورديتين/ وكان ثوبها يحمل مرافئ عديدة، أنهاراً عديدة وجزراً لا حصر لعددها/ ومن ثنايا ذلك الثوب كانت تخرج الجدران السميكة لمليون مدينة ومدينة».

«خطف أوروبا» (١٦٣٢) لرمبراندت.

● مهما يكن من الأمر، فإن رمبراندت حين وجد ذات يوم متعته في رسم هذه الأسطورة، وفي إسداء هذه التحية للفاتنة التي استقى منها أهل القارة في الأزمان الساحقة اسم قارتهم علماً بأن الكلمة تعني في الاغريقية القديمة «ذات العينين الكبيرتين»، آثر أن يجعل للمشهد خصوصية مبتكرة: فالمشهد هو بالطبع، مشهد الثور، وهو يصل الى ضفة النهر حيث أوروبا تلهو مع رفيقاتها، ليخطفها ويجتاز بها البحار، لكن الديكور الذي جعله الرسام في خلفية ذلك المشهد كان ديكوراً معاصراً له لا يمت الى عالم فينيقيا القديمة بصلة. والحال أن هذا الأسلوب كان طاغياً في الرسم في شمال أوروبا في تلك الأزمان. ونحن إذا ما نظرنا، مثلاً، الى مشاهد الأساطير الاغريقية وقد صورها فنان كبير، لا يقل أهمية عن رمبراندت، وهو بروغل الكبير، سنلاحظ كيف انه جعل المشاهد تدور في مدن هولندية. ولم يكن ذلك، نابعاً، بالطبع، من افتقار الرسامين الى مخيلة تنقلهم، بصرياً، الى الأماكن البعيدة ليصوروا المشهد في اطاره التاريخي، بل نابع من رغبة لديهم في اعادة تفسير الأسطورة وعصرنتها، بحيث يجد مُشاهد اللوحة نفسه أمام اطار مألوف لمشهد يعرف عنه الكثير ذهنياً وحان الوقت ليتعرف عليه بصرياً.

● والى هذا النمط من مفاهيم اعادة تموضع المشهد تنتمي هذه اللوحة التي كان رمبراندت لا يزال في السادسة والعشرين من عمره حين رسمها... على هذا النحو قسم رمبراندت فضاء لوحته قسمين: ففي الخلفية لدينا صورة لمدينة ومرفأ على البحر تشبهان الى حد كبير مدن المرافئ في ذلك الحين. أما في الجانب الأيسر من مقدمة اللوحة فلدينا رفيقات أوروبا وهن ينتحبن على ما يحدث لها، مرتديات ثياباً تنتمي الى الثياب الأوروبية – ولا سيما الهولندية – في زمن رمبراندت، لا في الزمن الفينيقي. أما أيمن المقدمة فيشغلها بالطبع مشهد أوروبا وهي على ظهر الثور. ولئن كان الثور واثقاً مما فعل ويسير في طريقه نحو البحر من دون تردد أو من دون أن يضطر الى بذل أي جهد، فإن موقف أوروبا يبدو هنا شديد الالتباس: صحيح انها تنظر نحو رفيقاتها وربما أيضاً نحو وطنها الذي تُجبر هكذا على مغادرته، بشيء من الحسرة والحزن. لكن حركة يديها المتمسكتين بالثور تحمل كل الالتباس: لأنها تبدو هنا – والى حد ما – متواطئة مع خاطفها متمسكة به، بأكثر مما تبدو خاشية للسقوط عن ظهره والغرق... إذ أنها هنا لا تزال قرب الشاطئ ولا خطر عليها إن هي وقعت.

● واضح أن رمبراندت هارفزون فان رين (١٦٠٦ – ١٦٦٩) وضع أوروبا في هذه اللوحة أمام قدرها ومصيرها وصوّر، ليس فقط عدم قدرتها في الافلات منهما، بل ربما أيضاً عدم رغبتها في ذلك. ولوحة «خطف أوروبا» لرمبراندت هي، على أية حال، واحدة من مشاهد تاريخية واسطورية عديدة صوّرها، خلال تلك الفترة من حياته، رسام هجس دائماً بمشاهد التاريخ – الديني والأسطوري والدنيوي أيضاً – ورسمها في لوحات صنعت له مجده، بمقدار ما صنعته لوحاته المعاصرة والواقعية، ثم بخاصة عشرات البورتريهات التي صوّر فيها نفسه، فكان مجلياً ورائداً أيضاً في تصوير الذات.

ابراهيم العريس